الوافي في الوفيات

وامتحن في الدولة الأشرفية على يد صاحب شمس الدين ابن السلعوس ثم نجاه الله تعالى منه قلت : في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن دقي العيد كلام له علاقة بهذه الترجمة ويقال أنه لما حكم بتعزيره نهره ابن السلعوس وأقامه فقالوا له : هذا تعزير مثل هذا فقال : لا بد من زيادة فقالوا ينزل من القلعة إلى باب زويلة ماشياً ولم ينله منه مكروه بعد عزله من القضاء أكثر من ذلك . وسكن القرافة وتولى التدريس بالمدرسة المجاورة لضريح الشافعي ثم سافر إلى الحج فقضى الفريضة وزار النبي A وأنشد بها القصيدة البليغة من نظمه وهي :
الكامل .

الناس بين مرجز ومقصد ... ومطولٍ في مدحه ومجود .
ومخبر عن روى ومعبر ... عما رآه من العلى والسؤدد .
ومنها : .

ما في قوى الأذهان حصر صفاتك ال ... عليا وما لك من كريم المحتد .
وتفاوت المداح فيك بقدر ما ... بصروا به من نورك المتوقد .
ومن المحيط بكنه معنى مدهش ... بهر بالعقول بمصدر وبمورد .
فإذا البصائر فيه تنفذ أدركت ... منه معاني حسننها لم ينفد .
ورأتك في مرآتها شمس الضحى ... طلعت بكل تنوفاً وبفدود .
فأفادت البصر الصحيح إنارة ... يقوى على البصر الضعيف الأرمود .
وأخو الهوى في طرفه وفؤاده ... مرض يصد عن الطريق الأقصود .
جدد الظهيرة نورها واهاً له ... حرم السعادة كلها إن يجدد .
خط الموفق أن يتابع دائماً ... أخلاقك الغر الكرام ويقتدي .
منها في الإسراء : .

لم يرتفع الله من خفض ولم ... يقرب إليه من مكان مبعود .
لكن أرى محبوبه ملكوته ... حتى يشاهد فيه ما لم يشهد .
وأراه كيف تفاضل الأملاك وال ... رسل الكرام وكان غير مقلد .
ورأت له الأملاك في ملكوته ... جاهاً وقدرأً مثله لم يوجد .
منها : .

هل جاء قبلك مرسل بخوارق ... إلا وجئت بمثله أو أزيد .
فعصا الكليم تبدلت أعراضها ... وكذا عصاك تبدلت بمهند .

نبعت عيون الماء من حجرٍ له ... والنبع في الأحجار كالمتعود .
إن البعيد من العوائد كلها ... نبع بدا بين الأصابع في اليد .
هذي هي الكف التي قد أصبحت ... بحراً إذا مدحوا لنا الكف الندي .
منها : .

ومحبة المولى هي الأصل الذي ... لم يثن عزمك عنه رأي مفند .
ومن الذي يجلي عليه جهرة ... ذاك الجمال فلم يخر ويسجد .
منها : .

صلوات ربك والسلام عليك ما ... حييت من متوجهٍ متعبد .
وجرى بذكرك لفظه في وقفه ... لخطابة أو جلسة لتشهد .
وإذا مررت على القلوب فكنت كال ... أرج الذكي يرد روح المكمد .
وعلى صحابتك الكرام وآلك ال ... براء من قول الجهول المفسد .
وعلى ضجيعك اللذين تشرفا ... بالقرب منك بمقعدٍ وبمرقد .
لمكانةٍ في الدين ما خفيت على ... متبصر قرأ العلوم مسدد .
قما بنصرك في الحياة عبادةً ... وجلادة أزررت على المتجلد .
وتكفلا بعد الممات بنصرة ال ... دين الحنيف على الكفور الملحد .
وتقلدا الأمر العظيم فأصبحا ... حججاً على كل امرء متقلد .
تأبى قد جدا وما ونيا ولا اخ ... تارا الأخف على الأشق الأجهد .
وكلاهما بزال فضلك يرتوي ... وبفضل برد من شعارك يرتدي .
كانا سعادة كل عبد صالح ... وشقاوة الباغي الجهول المفند .
قلت : شعر جيد جزل يدل على تمكن من العلوم .

عماد الدين النابلسي